

# مدرسة النوازل المالكية والإدارة العقلانية للفضاء العام: أجوبة المفتي عظم أنموذجاً

عبد الحق الزموري  
باحث تونسي



قسم الدراسات الدينية

## ملخص:

اشتهرت بلاد المغرب الإسلامي فيما يسمى بالعصر الوسيط بالتأليف في فن "الأجوبة" أو النوازل، وهو فن عرف أوجه - من حيث الانتشار الأفقي أو من حيث مساهمته في تكثيف مقولات النظر الفقهي والإبقاء على مسيرة الاجتهاد الأصولي حيّة متوارثةً من جيل إلى جيل - لدى أعلام المدرسة المقاصدية المالكية في بلاد المغرب. وكان ذلك الفن أهمّ مُخرَج من مُخرجات إنتاج المعرفة الدينية في ذلك الزمن، وخاصة باعتماده آلية الانطلاق من النظر المباشر في الواقع لا من النظر إلى النصوص، في محاولة لتفكيك المعاش، وإيجاد الأجوبة الضرورية لإعادة تركيبه بما يحقق الأهداف الأخلاقية الكبرى للفقهاء النوازلي في إسعاد الناس ضمن الرؤية الأخلاقية العامة.

وتحاول هذه الورقة أن تقدم للفقهاء القيرواني أبي القاسم عظوم (حوالي 930 - 1013 هـ/ 1523 - 1604 م)، باعتباره أحد حلقات تلك السلسلة المضيئة في تاريخ هذا الفن، وخاصة من خلال كتابه (الأجوبة) الذي جمع فيه أكثر من 950 نازلة وأكثر من 100 مسألة منقولة، أجاب فيها عامّة الناس وخاصتهم عن حلول لقضاياهم اليومية المعقّدة (في الفترة الممتدة من 1574 إلى 1601 م) عبر اعتماد منهج براغماتي عملائي في النظر إلى تأنيث الفضاء العام. والأجوبة تمرين عملي على مواجهة الفقهاء المقاصدي لأزمة دراماتيكية عايشها المؤلف والتصق بهموم الناس (وخاصة المهمشين منهم) لمساعدتهم على إعطاء المعنى الأخلاقي والقانوني لحركتهم اليومية المعقّدة، عبر الاستعمال المكثف لقاعدتي العادة والعرف الفقهييتين.

## مقدمة:

تميّز الفقه النوازلي المالكي منذ انتشاره ببلاد الغرب الإسلامي، وطيلة مسيرة تطوره - بإجماع الدراسات القديمة والحديثة في المجال<sup>1</sup> - بخصائص طبعت بنيته في النظر والعمل.

وتدور أهم تلك الخصائص على مصطلحات الواقعية والظرفية والمحلية، ما يجعله - أي الفقه النوازلي - متجدداً متطوراً باختلاف الأزمان والحالات والأمكنة، بل إن الفقهاء قد أطلقوا عليه تسميات عدة لعل أشهرها: فقه الواقع؛ فقه الأولويات؛ فقه الموازنات؛ فقه المقاصد... إلخ.<sup>2</sup>

ولعل ذلك الطابع الذي انطبع به علم النوازل المغربي يعود إلى تميّز علماء المالكية المغاربة في علم المقاصد، بل وبلوغهم به قمة المعارف في هذه الأصقاع، في زمنٍ كثرت فيه الفتن والصراعات السياسية.

لن نتعرّض في هذه الورقة إلى علم النوازل في بلاد الغرب الإسلامي، فلهذا المبحث أهله والمختصون في فكّ شفراته، وتقعيد آلياته، ورسم خارطته، وجمع مصطلحاته وما كُتب فيه.

ما جرّأني - بصفتي مشتغلاً بتاريخ الذهنيات - على مقارنة هذا المبحث، وعلى فقه النوازل تحديداً، وهو أحد دعائم المذهب في هذه الربوع، أمور عدّة أجمّلها فيما يلي:

(1) الرغبة في إثارة موضوع أعتقد - مع ثلثة من المهتمين بالدراسات الاستشرافية - أنه من أخطر وأهم المواضيع المطروحة اليوم في منطقة المغرب الإسلامي في ظل التحولات العميقة التي تشهدها ونحن نعيد رسم بنائها المستقبلي.

(2) كوني أشتغل منذ عدة سنوات على رأس فريق بحثي - مع بعض الإخوة الباحثين من بلدان عربية عدة وفي اختصاصات علمية متنوعة - حول إعادة رسم توارخنا المحلية، انطلاقاً من مدونة كتب تراجم الرجال، وتحديداً انطلاقاً من مدونة الفقيه المؤرخ المغربي المكي تقي الدين الفاسي (تـ 830 هـ) الموسومة بـ"العقد الثمين بأخبار البلد الأمين". وقد وقفنا منذ سنوات خمس على الأهمية القصوى التي يكتسبها هذا النوع من مصادر المعلومات، ومثيلاتها من رسوم وعقود ونوازل.

<sup>1</sup> - انظر على سبيل المثال لا الحصر ما أورده الباحث بركات إسماعيل في الدراسة التي صدر بها تحقيقه لمخطوط الدرر المكونة في نوازل مازونة، لأبي زكرياء يحيى بن موسى بن عيسى بن يحيى المغيلي المازوني (ت 883 هـ/ 1478 م)، للحصول على شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي الوسيط. كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية بجامعة منتوري - قسنطينة/ الجزائر. 2010 - 2009

<sup>2</sup> - د. نصيرة دهينة، "مدخل إلى فقه النوازل" في: أعمال الملتقى السادس للمذهب المالكي حول فقه النوازل في الغرب الإسلامي 28 - 29 أبريل 2010 بالجزائر. ص ص 20 - 36

3) مرافقتي للدكتور محمد الحبيب الهيلة طيلة خمس سنوات، وهو يحقق كتاب الأجوبة للقاضي المفتي أبي القاسم بن محمد مرزوق بن عظم (كان حيا سنة 1009 هـ / 1604 م). وقد فتحت لي تلك الصحبة وتلك المخالطة مع أحد كبار المحققين في تونس الباب على مصراعيه أمام مخزن ضخم من المعلومات التاريخية البكر التي يمكن (بل يجب) على المؤرخ أن يوليها الاهتمام الحيوي لإعادة بناء تصوراتنا حول مؤسساتنا الثقافية والاجتماعية والسياسية في المنطقة.

4) اهتمت المجامع العلمية الرسمية والأهلية في المغرب الإسلامي بكتب النوازل، وحبرت حولها الكتب وعقدت لها المؤتمرات،<sup>3</sup> وقد فوجئت بتجاهل الباحثين لـ"كتاب الأجوبة" للقاضي عظم، بالرغم من تعرضهم لكثير من النوازل المعاصرين له أو اللاحقين، بل أيضاً لبعض من اختصر أجوبة الشيخ عظم.<sup>4</sup>

5) اكتشفتُ - عند معايشتي لتحقيق الدكتور الهيلة لكتاب الأجوبة - أن مدونة عظم تحوي، إلى جانب طابعها الفقهي، منجماً من المعلومات التاريخية المتعلقة بالجوانب الاقتصادية من تجارة وصناعة وزراعة، والجوانب الثقافية من علوم وتآليف وأفكار منتجة أو متداولة، والجوانب الاجتماعية من عادات وتقاليد وبناءات أسرية وأحوال شخصية، والجوانب السياسية من صراعات الوقت والرُتب العسكرية والإدارية ونوعية العلاقات بين السلطات القائمة ومختلف طبقات المجتمع، وغيرها.

من هنا وُلدت الرغبة في التعريف بمنجم المعلومات هذا، باعتباره:

• أولاً: يترجم بشكل فارق عن البُعد الاجتهادي / البراغماتي في التعامل مع المتغيرات الطارئة أو العميقة التي تعترض المفتي المالكي ببلاد المغرب، وهو يقوم بـ"صناعته الفقهية"؛ وهذا البُعد هو ما يطبع النوازل بشكل عام، وعلم النوازل المغربي بشكل خاص.

<sup>3</sup> - انظر على سبيل المثال لا الحصر، مؤتمر "كتابة التاريخ الإسلامي: الإشكالية والمنهج"، بيروت، 14-16 نونبر 1997م (وبالخصوص ورقة د. إبراهيم القادري بوتشيش (المغرب)، تحت عنوان "النوازل الفقهية وكتب المناقب والعقود العدلية: مصادر جديدة لدراسة تاريخ البؤساء بالغرب الإسلامي" (ق 5 - 6هـ / 12 - 13م). وقد نشرت هذه الورقة في مجلة التاريخ، العدد 22 / 2002 م)؛ ورسالة الدكتوراه «النوازل والمجتمع» التي أعدها عمر بنميرة بكلية الآداب جامعة محمد الخامس، الرباط، 1989م؛ ودراسة محمد مزين «حصولية استعمال كتب النوازل الفقهية في الكتابة التاريخية المغربية»، والتي نشرت في كتاب «البحث في تاريخ المغرب، حصيلة وتقويم»، الصادر ضمن منشورات كلية الآداب بالرباط، العام 1989م؛ محمد فتحية، النوازل الفقهية والمجتمع. منشورات كلية الآداب بالدار البيضاء عام 1999م؛ وأعمال ندوة «الدول والنوازل الفقهية وأثرها في الفتوى والاجتهاد»، وهي من منشورات كلية الآداب في الدار البيضاء 2001 م؛ أعمال ملتقى "فقه النوازل في الغرب الإسلامي" الذي انعقد بالجزائر أبريل 2010؛ وأعمال "الملتقى الدولي حول كتب النوازل الفقهية وقضايا مجتمع المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط" الذي انعقد في جامعة المسيلة بالجزائر في شهر نونبر 2013؛

<sup>4</sup> - تعرض الدكتور محمد العلمي (من جامعة سلا بالمغرب) مثلاً إلى ما لا يقل عن 150 من كتب النوازل في دراسته المعنونة: "الجامع لمؤلفات النوازل في الفقه المالكي: دراسة وتعريف" ضمن أعمال ملتقى "فقه النوازل في الغرب الإسلامي" بالجزائر 2010. وقد أورد (في رقم 116 من قائمته) كتاب "اختصار أجوبة الشيخ عظم" لأبي عبد الله بن حمودة جعيط المتوفى سنة 1337هـ.

• وثانياً: لأنه يدفعنا إلى إعادة النظر في مسلمة غلق باب الاجتهاد في هذا الفضاء، مسلمة تحولت إلى رأي "علمي" دارج. خاصة أن مدرسة النوازل المالكية كان لها الدور البارز في التصدي لمنع المجتمع من الانهيار في اللحظات الدراماتيكية الفارقة، كما في حالة الفقيه المجتهد عظم (وهو ما سنراه لاحقاً) الذي يقدم لنا مثلاً عن تنفيذ الرأي السائد منذ أكثر من قرن والقائل إن إفريقية (تونس) كانت تعيش في ظلام دامس طيلة القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر الميلاديين.

## الشيخ أبو القاسم عظم: مسرح النشأة والبروز

لن أفصل هنا في سيرة الفقيه عظم (حوالي 930 - 1013 هـ / 1523 - 1604 م)<sup>5</sup>، فقد تناولها الدكتور الحبيب الهيلة في مقدمة تحقيقه للأجوبة<sup>6</sup>، وفي كتابه الذي خصصه للتعريف به<sup>7</sup>، كما تناولها قبله غيره<sup>8</sup>. ولكننا سنتعرض بإيجاز إلى المعالم الرئيسية التي كانت تطبع عصر ظهوره، بخلفية يحرّكها التساؤل عن أسباب نبوغه، ومن وراء ذلك سؤال المعرفة والإنتاج المعرفي.

يمكن القول - من جهة علم اجتماع السياسة - إن شخصية العالم (أو الفاعل الاجتماعي) أبا القاسم عظم قد تشكّلت في أزمنة دراماتيكية ثلاثة:

\* نهاية الدولة الحفصية وأفول نجمها، وقد تميز هذا العهد بالفتن والظلم وتقلص مجال الدولة والثورات والخيانات.

\* زمن السيطرة الصليبية على تونس. وقد استهله استنجد الأمير الحفصي بشارلمان سنة 941هـ/ 1535 م، وما خلفه الأسطول الإسباني من تقتيل وتشريد ونهب لسكان المملكة، بعد أن استحل المدينة للجيش الصليبي ثلاثة أيام كاملة بلياليها<sup>9</sup>. وأعاد الملك الحفصي الاستنجد بالإسبان في الحملة الصليبية الثانية على تونس التي سميت بـ"وقعة الجمعة" أو بـ"خطة الدواميس"، وقادها دون جوان دوتريش سنة 1574، ليدخل بخيله جامع الزيتونة ويستحل حرمة ويبدد كتبه ومخطوطاته.

<sup>5</sup> - بحسب تأكيدات الشيخ محمد الشاذلي النيفر في "تراجم خليل لعظوم والطرق القرطبية للفقهاء". النشرة العلمية للكلية الزيتونية، ع 1 س 1 (1970) ص 168-97

<sup>6</sup> - أبو القاسم عظم؛ كتاب الأجوبة، تحقيق وتقديم د. الحبيب الهيلة. تونس: بيت الحكمة، 2004-2009، 11 ج

<sup>7</sup> - محمد الحبيب الهيلة؛ المفتي أبو القاسم عظم في عصره: لمعة نور في عصر آفل، تونس: بيت الحكمة، 2009، 114 ص.

<sup>8</sup> - ومنهم د. محمد الطاهر الرزقي في كتابه: متطلبات الشهادة على المشهود عليه مع تحقيق رسالة نعوته للشيخ أبي القاسم عظم. الرياض: مكتبة الرشد، 1998 م، 320 ص. وقد اعتبر الدكتور الهيلة أنها أكمل ترجمة للقاضي عظم، لمعة نور في عصر آفل، ص 57

<sup>9</sup> - عرفت الهجمة عند المؤرخين التونسيين بـ"خطة الأربعاء"، وقد قتل فيها الثلث (60 ألف) وشُرد الثلث (60 ألف) وعاش الثلث تحت جبروت وظلم الصليبيين.

\* زمن العثمانيين (الأتراك). وفيه أرسل السلطان سليم الثاني بعثة عسكرية خلّصت إفريقية من الإسبان وأنهت رسمياً حكم الحفصيين سنة 981 هـ / 1573 م، ليبدأ حكم الأتراك، وتصبح تونس ولاية عثمانية إلى جانب ولاية الجزائر وولاية طرابلس.

عايش عظم هذه الأزمنة الدراماتيكية، وعرف تقلباتها والتحوّلات العميقة التي أنتجتها، وآثارها التي طبعت البنى الاجتماعية والسياسية والثقافية والإدارية لإفريقية. فكيف ظهر ذلك في مؤلفاته، وهو سليل العائلة العظومية التي تركت بصمتها على الحياة العلمية والدينية والإدارية لمدينة القيروان طيلة قرون؟<sup>10</sup>

يذهب الدكتور الطاهر الرزقي إلى خُلُو ما كُتِبَ عن عظم وما كتبه هو عن نفسه ومؤلفاته من أية مشاركة في تلك الأحداث، من أي نوع كان، وأنه كان "منصرفاً إلى شؤونه منكباً على المطالعة والدراسة والتأليف".<sup>11</sup>

ولكن المدقق في تأليف أبي القاسم عظم، وبالتحديد في رسالته المعنونة بـ"الإعلام بما أغفلته الأعوام"، (وهي في أحكام أهل الذمة)، وفي بعض الأجوبة والمسائل المتعلقة بالحكم التركي الواردة في "كتاب الأجوبة" لا يمكن أن يرتاح تماماً لمثل هذا الرأي؛ فالنازلة الفقهية لدى فقيهما (ولدى النوازليين بشكل عام) تعبير عن وعي حاد بواجباته الدينية والعلمية تجاه عامّة المسلمين وليس تجاه الحكام، ووعي بالوظيفة التي يؤديها، وما يتركه أداؤها من أثر على الناس في سلوكياتهم اليومية العامة، ووعي بدوره التاريخي باعتباره حلقة في سلسلة من أمناء الأمة، انطلاقاً من أسئلة سحنون في القرن الثالث الهجري (بالنسبة للتونسيين) مروراً بأسئلة ابن أبي زيد القيرواني، وأسئلة القابسي، والمازري، وابن عرفة، والبرزلي، لذلك نجده حريصاً على التأليف وعلى تدوين نوازل، حرصاً منه على تسليم المشعل لمن بعده.

<sup>10</sup> - أحصى الدكتور الهيلة 26 من علمائها ومنتقبيها ممن تقلدوا المناصب العلمية والإدارية وكانت لهم تأليف على مدى ستة قرون من تاريخ البلاد التونسية. لمعة نور، ص ص 36-41

<sup>11</sup> - محمد الطاهر الرزقي؛ نفسه، ص 26

## كتاب الأجوبة واشتغال العقل الفقهي في الواقع "المأزوم"

تُطلق على كتب الفتوى في بلاد المغرب الإسلامي تسميات عديدة منها الأجوبة، والنوازل، والأسئلة، والمسائل، والأحكام، ولكنها جميعاً تعبر عن مدرسة نوازلية مغربية ذات خصائص مميزة، وإن اختلفت مناهجها وأزمانها وموضوعاتها.

جاء "كتاب الأجوبة" للفقهاء عظام في عشرة أجزاء مطبوعة، واحتوت على 957 نازلة، وأكثر من 100 مسألة منقولة من أمهات الكتب الفقهية في المذهب. وتمسح الأجوبة فترة زمنية ممتدة - بلا انقطاع - من سنة 982 هـ / 1574 م إلى سنة 1009 هـ / 1601 م؛ أي أنها مخصصة بالكامل بالفترة التركية، وإن تناولت بعض مسائلها فتاوى في قضايا على علاقة بمرحلة استيلاء الإسبان على تونس. وترجمت عن أنواع من الاستفتاءات: كالأسئلة الشخصية التي يريد أصحابها معرفة الحكم الشرعي في قضايا خاصة، أو مطالبته بإبداء رأيه في فتاوى صدرت في عهده، أو مطالبته بالتعليق على أحكام صدرت في أيامه، أو المشاركة في مجالس علمية فقهية تحت رئاسة الباشا التركي للنظر في مسائل شائكة تحتاج إلى حلول شرعية.<sup>12</sup>

تمثل الأجوبة وحدة منطقية، تتركب من عناصر ثابتة: أ - السؤال؛ ب - الجواب؛ ج - التذييل، ويمكن أن يضيف عظام أحياناً فوائد أو تنبيهات أو مناقشة لآراء وفتاوى سابقة. والحفاظ على صرامة المنهج طيلة 27 سنة دليل على "صناعة منطقية" لا يأتيها إلا متبحر متمكن.

وإذا علمنا أنّ عظام لم يغادر إفريقيا أصلاً، وأنّ عصره اتّسم بالاضطراب الشديد والفوضى العارمة وغياب الأمن النفسي والبدني والمعاشي (أو ما أطلقنا عليه بالواقع المأزوم)، وأنّ الأسئلة كانت تأتيه من كثير من مدن ومناطق إفريقية ومن خارجها، وأنه كان يتمتع بثقة كبيرة في حكمه الشرعي من قبل العامة والخاصة بالرغم (أو بسبب) من غياب العصبية السياسية أو العسكرية أو القبلية التي يمكن أن توفر له الحماية، عرفنا أن المحافظة على صرامة المنهج طيلة تلك الفترة لم يكن ليتوفر إلا لعالم مجتهد يفوق معاصريه، ويجلب لنفسه الاحترام والتبجيل.

ولا بد من الإشارة هنا إلى ملاحظتين حول كتاب الأجوبة، من شأن التدقيق فيهما أن يمكّنا من رسم صورة حقيقية عن هذا العالم المجتهد:

1. إذا نظرنا في الموضوعات التي تناولها "كتاب الأجوبة" وجدناها جميعاً، وبلا استثناء، تنتمي إلى ما يسميه الفقهاء بفقهاء الواقع، وتنعدم من بينها المسائل ذات العلاقة بالعبادات أو بالعقائد، بل تركّز أغلبها حول

<sup>12</sup> - الرزقي؛ نفسه، ص 91

موضوعات المعاملات ومنها:<sup>13</sup> الأحوال الشخصية/ المعاملات التجارية / المعاملات المالية / الموارد والأوقاف والوصايا / الصناعات / الجراحات والقتل / أحكام العبيد وحقوقهم / مسائل على علاقة باستيلاء النصارى على تونس / أحكام حول بعض التصرفات الإدارية والقضائية والموظفين / فتاوى متعلقة باليهود... إلخ.

لا يمكن أن يكون هذا الاختيار من الفقيه عظمٍ اعتباطياً، كما لا يمكن القول إنه لم يُفتَ في العبادات والعقائد، فقد رأينا له بعضها في تأليف أخرى. والجواب عن ذلك يكمن في كون كبار الفقهاء المنافحين عن المذهب يلجؤون إلى التأليف في النوازل، باعتباره أرفع مستويات التأليف لما يحتاجه هذا الفن من قدرات على إعمال العقل في استنباط الحكم من المصدر الشرعي ليتم تطبيقه على النازلة، وهو ما أبقى "باب الاجتهاد مفتوحاً في كل المسائل النازلة والتي كانت تتطلب حلاً شرعياً مقبولاً وقابلاً للتطبيق".<sup>14</sup>

2. اعتمد أبو القاسم عظم في "أجوبته" على عدد كبير من المصادر السابقة في المذهب، أحصينا منها أكثر من 260 تأليفاً، يذكر في بعضها رقم الورقة أو عنوان الباب أو الفصل المنقول عنه. وسعة الاطلاع والتمكن من آراء من سبقه ومناقشته أحياناً لتلك الآراء ترجيحاً أو تجاوزاً يؤشر إلى علو كعبه في علوم المنقول والمعقول، ودليل آخر على أنّ التأليف في النوازل تأكيد على تواصل المدرسة العقلية البرجماتية المغربية وعدم انقطاعها، رغم كل ما روجه المؤرخون حول "بؤس" القرن السادس عشر الميلادي في تونس، وخلوه من العلم والعلماء. ولعل ما يترجم هذا الرأي الشائع وصف الدكتور الحبيب الهيلة محقق كتاب الأجوبة لعصر عظم بالأفول، وقوله إنّ أرض الثقافة التونسية أصبحت "وكانها يباب"، بل يطلق عليه "العصر الأجدب".<sup>15</sup>

الأسئلة التي تطرح نفسها علينا بشدة - انطلاقاً من هذه الملاحظات - هو كيف للمعة النور هذه أن تظهر فجأة (وقد تجاوز صاحبها الخمسين من عمره بالعود إلى تاريخ الأجوبة)، وبذلك النبوغ العقلي والتبحر المعرفي والقدرة الفائقة على الاجتهاد في واقع سميناه "بالمأزوم" لما تميز به من تعقيد بالغ ودراماتيكية عاصفة؟ ألا يؤكد لنا علم اجتماع الثقافة أن إنتاج المعارف، وقدرة منتجها على التفاعل مع مخرجات الواقع وإيجاد الحلول البرجماتية لتعقيداته، لا يمكن أن يحدث دون وجود حاضنة علمية مساعدة تُطَبِّحُ فيها تلك العقول في النظر وفي الفعل، ولذلك اعتبر المؤرخون أنّ مؤلفات النوازل هي وعاء المجتمع تحكي فقهيّاً عن قضاياها

<sup>13</sup> - الهيلة؛ لمعة نور، ص 76

<sup>14</sup> - دور الفقه النوازلي في تثبيت المذهب المالكي في الغرب الإسلامي. د. محمد ناصر المتبوي مشكوري. أعمال الندوة الدولية دور المذهب المالكي في تجربة الوحدة المرابطية لدول الغرب الإسلامي الكبير. فاس: مطبعة البلابل، 2010. 129/2

<sup>15</sup> - الهيلة؛ لمعة نور في عصر أقل، ص 11



وهمومه، وهي في الوقت نفسه دليلى على درجة نضج النوازليين أنفسهم. ألم تسبغ كتب التراجم التي أرخت لعلمين من أعلام تونس من معاصري عظموم (الشيخ محمد مغوش التونسي ومحمد خروف الأنصاري التونسي، جار الله) بالأوصاف التالية: "أعلم علماء المعقول بتونس"، "ظهرت مكانته في العلوم العقلية"، "من العلماء بالمعقول"، "العلامة المعقولي"، "متضلع بالعلوم والفهوم"<sup>16</sup>

## أجوبة عظموم والإدارة العقلانية للفضاء العام

سبق أن أشرنا إلى أن كتاب الأجوبة للمفتي عظموم هو عبارة عن نوازل تطبيقية لخدمة الناس في معاشهم اليومي، وتدبير تفاصيل العلاقات بين مختلف الأطراف داخل الفضاء العام، ومن ثم إعادة تشكيله وترتيبه طبقاً للمسؤولية الشرعية والأخلاقية التي يحسّ بها الفقيه، والتي تجعل منه بحسب تعريف الإمام الشاطبي له "القائم في الأمة مقام النبي، ونائب عنه في تبليغ الأحكام"<sup>17</sup>.

تبدأ النوازل بالكشف عن بعض الجوانب في حياة الجماعات، قد لا تُكشف بغيرها، خاصة إذا افتقدت الجماعة، والفئات المستضعفة منها بشكل خاص، لمثل الفقيه عظموم، ينوب عنها في التصدي لمشكلاتها والبحث لها عن حلول قانونية وأخلاقية.

تتركب النازلة من شقين: السائل والمجيب. الأول يمثل حقيقة الواقع الاجتماعي، والثاني يمثل حقيقة القانون المعتمد على الدين وعلى المثال المقتدى. ويُطلقُ في النازلة - عادة - من الواقع كما هو، باعتباره مُعطى، وتكون استجابة الفقيه للسؤال عبر البحث عن حلّ قابل للتطبيق ضمن حيثيات ذلك الواقع، مع إيجاد الغطاء الأخلاقي / الشرعي في الحكم الفقهي الذي يتضمنه جوابه.

ويمكن لدارس التأليف النوازلية:

\* معرفة الأسئلة المتداولة والقضايا المثارة في عهد من العهود.

\* الكشف عن عقلية السائل وعقلية المجيب، ودور مؤسسات التعليم والمجتمع في صناعة اهتمامات الناس والنخبة، وصلة ذلك بالمشهد السياسي والاجتماعي والفكري ثم الديني.

\* معرفة درجة استحضار الأسئلة والأجوبة للمشاكل اليومية للناس.

<sup>16</sup> - الزركلي في الأعلام؛ العزّي في الكواكب السائرة؛ ابن القاضي في جذوة الاقتباس؛

<sup>17</sup> - الشاطبي؛ الموافقات، 5/ 253 عن: د. محمد البركة؛ فقه النوازل على المذهب المالكي، فتاوى أبي عمران الفاسي. المغرب: أفريقيا الشرق، 2010، ص 65

\* معرفة درجة استيعاب الفقهاء لحاجات المجتمع المعرفية والاجتماعية والاقتصادية.

\* اكتشاف درجة مواكبة المعرفة الدينية المنتجة لسؤال الواقع المعيش... إلخ.<sup>18</sup>

والمأمل في أجوبة عظوم يكتشف دورانها على قاعدة "ما جرى به العمل"، وهي نظرية مالكية محضة تعود إلى أصول سد الذرائع والمصالح المرسلّة. والمعلوم أن العمل - في أحد معنييه - جاء مرادفاً للعرف. ونؤكد هنا أن العادة والعرف يحتلان في "الأجوبة" - وفي المنهج الاجتهادي العظومي بشكل عام - مرتبة عالية في النظر والفتوى. لذلك نجد الفقيه عظوم يستعمل في أكثر من جواب القاعدة الفقهية "كل دعوى ينفىها العرف وتكذبها العادة فإنها مرفوضة"،<sup>19</sup> ويردّدها للمزيد من التأكيد على منهجه في استنباط الأحكام بقاعدة "كل ما يُصدّق شرعاً، فإنما يُصدّق ما لم تُكذّبه العادة"، أو يستعمل قاعدة "كل ما تنفيه العادة فهو مرفوض".<sup>20</sup>

والقاعدة عند عظوم "أمر كلي منطبق على جزئيات تُعرّف أحكامها منه"، و"القاعدة والقانون والضابط والأصل كلها ألفاظ مترادفة معناها واحد"،<sup>21</sup> لذلك نجدها بكثرة كثيرة في أجوبته، ومنها "إذا انتفت العلة انتفى معلولها"، أو "إذا بطل الشرط بطل المشروط"، أو "الإعذار شرط في الحكم"، أو "الدعوى إذا كذبت العادة فهي مرفوضة"، أو "طلب تحصيل الحاصل عبث ليس من أعمال العقلاء"، أو "عوائد الناس كالإقرار"... إلخ.

كما أننا أحصينا استعمال مصطلحي العادة أو العرف حوالي 600 مرة في أجوبته،<sup>22</sup> وذلك - لعمرى - دليل آخر على التصاق المفتي عظوم بالواقع وتعبيره الصادق والتلقائي عن هموم الناس، وبخاصة الفئات المهمشة والمستضعفة من بينهم.

<sup>18</sup> - انظر عمار جبيل؛ "النوازل مصدرأ للتاريخ الاجتماعي والثقافي". في: أعمال الملتقى الدولي السادس للمذهب المالكي. الجزائر 2010. ص ص 284-293

<sup>19</sup> - كتاب الأجوبة، ج 3 ص 87 و ص 118، ج 4 ص ص 86 و 88 و 89، ج 9 ص ص 352 و 354

<sup>20</sup> - الأجوبة، ج 8، ص 174

<sup>21</sup> - ج 3، ص 69

<sup>22</sup> - انظر الجزء 11 الذي خصصه الحبيب الهيلة للفهارس العامة.

## خاتمة:

حاولنا في هذا العرض السريع إثارة انتباه الباحثين من مختلف تخصصات العلوم الإنسانية والاجتماعية إلى هذا النوع من المدونات، ودعوتهم للقيام ببحوث معمقة حول معالم المنهج العملي - العقلاني (البراغماتي) الذي اعتمده الفقيه عظم في أجوبته، وهو يعطي المعنى الأخلاقي والقانوني للفضاء العام، عبر تتبع مختلف استعمالاته لقواعد العادة والعرف الفقهييتين.



MominounWithoutBorders



@ Mominoun\_sm



Mominoun

الرباط – المملكة المغربية  
ص.ب : 10569  
هاتف: 00212537779954  
فاكس: 00212537778827  
info@mominoun.com  
www.mominoun.com